جهاز النطق عند اللغويين العرب القدامى

د. أحمد محمد قدّور

1. تمهيد في أطوار الثقافة العربية ومعارفها:

يتطلب الحديث عن جهاز النطق عند اللغويين العرب القدامى المرور بالمعارف العربية من خلال الثقافة السائدة في المراحل الرئيسة للحضارة العربية الإسلامية. وليس مفيداً في هذا الصدد مجاراة الكثير من الباحثين المحدثين في الاقتصار على مرحلتين أو طورين من أطوار الثقافة العربية والإسلامية انطلاقاً من التدوين وظهور العلوم الدينية والأدبية. فالباحث مدعوّ إلى الوقوف على طور متقدّم سبق الإسلام حتى تسلم له النتائج التي يمكن الحصول عليها من الطورين الآخرين.

فالعرب قبل الإسلام لم يحقّقوا حضارة راقية لأسباب كثيرة تتصل بعناصر الزمان والمكان. فالحضارة التي هي مجموع العناصر المدنية والثقافية لم تُهيّأ لها الأسباب لكي تظهر على النحو المعروف، لأنّ الطبيعة البيئية المتمثلة في البوادي والصحارى والأراضي القاحلة لا تساعد على حياة الاستقرار والتمدّن، بل تفرض نمطاً آخر من حياة الناس هو التبدي والارتحال طلباً للماء والكلأ ومنافع التجارة والسفر. وهذا أمر لا جدال

فيه من هذه الجهة. لكنّ العرب كما أظنّ ما كانوا يختارون هذه الطبيعة البيئية القاسية طواعية، لأن في هذا الاختيار خروجاً على المعهود من حياة الناس الذين مازالوا يتزاحمون ويقتتلون على مراكز الزراعة والاستقرار المدني. وهكذا تكون حياة التبدي لدى العرب حياة اضطرار لا اختيار. أما الأسباب الداعية إلى هذا الاضطرار فتتمثّل في تداعي الأمم والقوى العظمى عليهم منذ خمسة قرون تقريباً أو أكثر قبل البعثة النبوية. إذ من المعروف ما قام به الفرس والروم والأحباش من غزو وتدمير للممالك العربية في أطراف الجزيرة المأهولة التي ورثت الحضارة العروبية القديمة في بلاد الرافدين والشام ومصر وما يتصل بها. ويكفي أن نذكر الأنباط والتدمريين واليمنيين وعرب الشام والعراق الذين لحقهم من أذى الغزاة ما دمّر حضارتهم وألجأ معظمهم إلى الاحتماء بالبوادي الشاسعة التي تضمّها أقاليم الجزيرة العربية.

لكنّ العناصر الثقافية المقصودة في هذا التمهيد ليست موافقة بالضرورة للعناصر المدنية التي لم يتحقق منها إلا النزر اليسير الذي لا يفي بظهور الحضارة المعهودة. وإذا استثنينا ما يتعلق بالسياسة ونظام الحكم والظلم الاجتماعي والتقهقر الأخلاقي ظهرت لدينا صورة أخرى تبرز عناصر ثقافية لا يستهان بها عامة. وأول هذه العناصر ما يتصل بالمستوى العقلي الذي مثّلته الحكم والأمثال والقصص التي تروى للاعتبار، وكذلك الأحاجي والألغاز، وما يروى على ألسنة الحيوان من كلام يساق للعبرة والعظة، وحبّ الجدال ورفض التسليم للخصم إلا بعد حجّة واقتناع. وقد

ظهرت صور لهذا المستوى في القرآن الكريم الذي ذكر ولع العرب بالجدل وأعتدادهم بعقولهم واستخفافهم بكلّ ما يخالف معرفتهم وما علموه من آبائهم الأولين. أما المستوى الأدبي الذي مثّله الشعر واللغة فأمره واضح وضوحاً لا يحتاج إلى بيان. فالشعر حقاً ديوان العرب، بل هو عِلم العرب وسجل مآثرهم ومجلى عقولهم. وقد قيل: إنما سمّي الشاعر شاعراً، لأنه يشعر بما لا يشعر به غيره. والشاعر دأبه توليد المعاني وابتداع الصيغ وإبراز الإيقاع وإيحاء الصور. لذلك كان للشاعر مكانة الزعيم والرائد والمعلّم. ولم يكن مستغرباً أن يعتمد المفسرون الأوائل على الشعر لتفسير القرآن، وأن يكون الاهتمام بالشعر في عصر الرواية صناعة احترفها بعض أهل العلم كما تحترف الصناعات وأصناف العلوم[1]. أما اللغة فقد انطبعت بها شخصية الأمة، فصارت دليلاً يستدلّ به على حياة العرب ومعارفهم. وإذا ما تجاوزنا الخصائص الفنية للغة العربية لضيق المجال، فإنّ ما حفلت به هذه اللغة من معارف علمية متنوّعة يجعلها سبيلاً للوصول إلى المستوى العلمي الذي يتصل به بحثنا هذا اتصالاً وثيقاً.

ولعله من المفيد أن نشير قبل أن نعرض لعناصر المستوى العلمي إلى أنّ اللغة كانت تقتصر غالباً على خصائصها الشفهية لعدم الحاجة إلى الكتابة والتدوين دائماً. فالكتابة لم تكن مجهولة عند العرب في الجاهلية وإن لم تكن شائعة، ولو كانت مجهولة لما أُمر الناس بتدوين العقود والمداينات ولما دوّنت آيات الذكر الحكيم وأحاديث الرسول الكريم.

---

(١) انظر ابن رشيق، العمدة، ١/١١٦- ١١٩.




ولا يظننّ المرء أنّ غياب التدوين الواسع وعدم اللجوء إلى الكتابة يؤثر في الطبيعة الشفهية للغة، إذ كانت اللغة أصلاً أصواتاً يعبّر بها كلّ قوم عن أغراضهم قبل أن يعرف الإنسان الكتابة بعصور لا ندري مداها في الزمن ابتداء. والمشافهة والمكاتبة في اللغة طاقتان تتبع إحداهما الأخرى أساساً. فالمشافهة ههنا أصل ثم تأتي المكاتبة محاولة تسجيل المشافهة وإعطائها أبعاداً مكانية وحياة زمانية. ولا يجادل أحد طبعاً في أهمية الكتابة وارتباطها بالحضارة الإنسانية من جوانبها كافة. ومن هنا نستطيع فهم «الأمية» التي غلبت على العرب قبل الإسلام. فالأمية عندي هي أمية الكتابة والقراءة في المدوّنات، وليست أميّة الكلام والجهل بالمعارف المرويّة. وتدخل هذه المسألة من هذه الجهة في الإعجاز القرآني وإثبات النبوة المحمدية. فالرسولﷺ كان أميّاً كسائر العرب إلا أقلّهم، ولم يكن قارئاً كاتباً، كما لم يكن كاهناً أو ساحراً أو شاعراً، لكنه أقرئ القرآن بلسانه وخزنه في قلبه وبلّغه قومه، وفيه من المعارف والعلوم والقصص وأخبار الكون والرسل والأمم ما لا يمكن لأحد جمعه إن كان يعرف القراءة والكتابة، فكيف بمن لا يعرف شيئاً من ذلك أبداً ولا ينبغي له أن يعرفه، لأنه لا ينطق عن الهوى، إنما هو وحي يوحى[١].

أما المستوى العلمي فتمثله معارف جمّة نقلتها اللغة كما أشرنا آنفاً. من ذلك معارف تتصل بوصف الأرض والآبار والشجر والنبات

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى في تنزيه رسوله ﷺ عن الهوى: «وما ينطق عن الهوى. إن هو إلا وحي يوحى» النجم (الآيتان ٣-٤).

والثمار وأحوالها وأنواعها ممّا أُلّفت فيه الكتب وحوته المعاجم التي ظهرت في عصر التدوين وما تلاه. وهناك معارف أخرى تتعلّق بالنجوم ومواقعها وما يكتنف السماء كما يراها العربي في البوادي. وقد جاء في المصادر العلمية أن أبا الحسين الصوفي أثبت نحواً من (٥٢٠) اسماً من أسماء النجوم عند العرب[١]. ومن هذه المعارف ما أطلقوا عليه اسم «الأنواء» المتعلق بالأزمنة والفصول وأحوال السحاب والمطر والرياح ونحوها ممّا دوّنه اللغويون في رسائل مفردة فيما بعد. وهناك معارف أخرى ربما كانت خاصة بالعرب لارتباطها بحياتهم كالأنساب والفِراسة والقيافة والريافة والعِيافة والعِرافة[٢]. أما الطبّ والتداوي فله شأن كبير في حياة العرب. يدلّ على ذلك ما نجده في لغتهم من أسماء أعضاء الإنسان وأوصافها وما يعرض لها في المرض من أحوال، ومن أسماء العقاقير وطرق التداوي، ونصائح طبية تتعلق بالطعام والشراب والنوم والنكاح وغيرها ممّا يحفظ البدن ويبعده عن المرض. والطبّ وليد الحاجة إلى القوة التي تقوم عليها المجتمعات البدوية أساساً، لذلك اعتنى به العرب، وكان لهم أطباء مشهورون اكتسبوا معارفهم من التجارب والاقتباس من مراكز المدن في أطراف الجزيرة وما جاورها من الشعوب المتحضّرة. وعرف العرب نوعاً آخر من الطبّ يتصل بالحيوان والطير، وهو شيء لازم لحياتهم التي تتعلق بالحيوان تعلّقاً كبيراً. وقد دلت اللغة على عناصر

(١) انظر: تاريخ الحضارة العربية: الحياة الفكرية، ص ٩- ١٩.

(٢) انظر: المرجع السابق، ص ١٤- ١٥.

المعرفة الطبية ووسائلها من خلال مفردات جمعت فيما بعد في رسائل مفردة أو كتب جامعة اختصت بخلق الإنسان وخلق الحيوان على اختلاف أنواعه، والفرق بينهما ممّا ستأتي الإشارة إليه لاحقاً.

وتبدأ المرحلة الثانية أو الطور الثاني من الثقافة العربية حين بعث النبي محمد ﷺ ونزل القرآن الكريم. ومن الخطأ في هذا الشأن ما جرى عليه الكثير من الباحثين الأجانب ومن تبعهم من العرب والمسلمين من اتخاذ خروج المسلمين من جزيرتهم إلى الأمصار فاتحين بداية لهذه المرحلة، لأنّ أثر الإسلام ابتدأ مذ أمر الرسول الكريم بأن يقرأ ويبلّغ ثم يؤسس من قواعد الحياة ما يؤسّس. ولعلّ أبرز دليل على ما نرى هو أنّ الدين الجديد أتى بمفهوم للعلم لم يعهد له الناس مثيلاً من قبل. فالدين بدأ بـ «اقرأ» وثنّى بـ «ما يسطرون»، وحثّ في كلّ شأن على التفكر والتعلّم والإفادة من وسائل الحسّ التي أودعها الله تعالى في الإنسان للقيام بالخلافة في الأرض باستعمارها وإصلاح شأن أهلها. ومعروف أن الحضارات السابقة كانت تجعل العلم حكراً على فئة قليلة من الناس، فانتشر الجهل في العامّة ومال الناس إلى الكهّان والسحرة يطلبون حلولاً لمشكلاتهم. أما الكتب فكانت على قلّتها تودع في خزائن الملوك وعلية القوم من الأمراء والعلماء. لكن ذلك لم يكن له وجود لدى المسلمين أساساً، فالأمة الأميّة سرعان ما صارت أمة متعلّمة ومعلّمة، فانتشرت الكتابة وظهر نزوع إلى السؤال والاستفهام وجمع الآراء والشروع في التفسير. ولولا هذا المفهوم الشامل للعلم لما حدث ما هو معروف من

نهضة شاملة في ديار المسلمين. ويكفي أن نشير إلى أنّ العلم صار يشكل كلّ معرفة يستفيد منها الناس، وهو علم لا فرق فيه بين عربي وأعجمي، أو بين رجل وامرأة، أو بين كبير وصغير. ولا عجب إذن أن يطلب من المهد إلى اللحد، وأن تضرب إليه أكباد الإبل ولو كان في الصين، وأن يكون سبيلاً لبلوغ الجنة. لقد كانت هذه المرحلة مرحلة عربية إسلامية تحقّقت فيها المدنية واتسعت فيها الثقافة اتساعاً أخرجها من دائرة المعلومات العامة إلى دوائر العلوم والفنون والآثار المدوّنة. لكن الثقافة ههنا مازالت ثقافة العرب المسلمين قبل غيرهم. ولذلك امتازت هذه المرحلة بالاعتماد على النقل ووسائله من سماع ورواية وتحقيق للنصوص واحتجاج بما ثبت منها. أما الاجتهاد والتقعيد وتأسيس العلوم فكان محصلة للعناصر اللغوية والدينية والعقلية التي سيطرت على حياة الناس عصرئذٍ. وليس من المستطاع في هذا الصدد التعرّض تفصيلاً لخصائص المستوى الأدبي واللغوي، والمستوى العقلي، والمستوى العلمي لضيق المجال، ونجتزئ بما تقدّم من إشارات هنّ عنوانات لأبواب واسعة من أبواب القول.

أما المرحلة الثالثة من مراحل الثقافة العربية فهي إسلامية مولّدة ظهر فيها أثر الترجمة وعلوم الأجانب. وربّما كان مطلع القرن الثالث للهجرة بداية لها على وجه التقريب، أما نهايتها فتمتدّ إلى القرن الخامس للهجرة على أبعد تقدير. ومن الطبيعي أن تنتشر في هذه المرحلة علوم العجم - كما يقول الخوارزمي - كالمنطق والفلسفة والهندسة والحساب

والكيمياء. والموسيقا وغيرها[١]. أما الثقافة العقلية التي عمادها المنطق والفلسفة فقد أريد لها أن تستبد بكلّ شيء من مناحي اللغة والأدب والدين. وقد ولّد هذا نمطين متباينين متعاكسين من أنماط الثقافة في المرحلة نفسها مع تفوّق الثقافة الأجنبية غالباً. فالنمط الذي عماده النقل وانتحاء سمت العرب والاعتماد على النصوص والآثار الدينية الثابتة بالسماع زاحمه نمط جديد اشتدّ أثره باعتماده العقل وتحكيمه إياه في كلّ ما يعرض للعالم في أيّ ضرب من ضروب العلوم. ولا بدّ من الإشارة إلى أنّ بعض الباحثين المحدثين يميل إلى القول بأثر الثقافة المترجمة في نشأة العلوم العربية والدينية استناداً إلى بدء الترجمة في القرن الأول للهجرة، وإلى ظهور ثقافة عقلية منطقية على نحو من الأنحاء. والحقّ أن الترجمة لم تتسع اتساعاً يسمح لها بالتأثير إلا في القرن الثالث حين نظّمت في عهد المأمون وظهر ما يدعى بعصر تراجمة بغداد (٢٠٥-٢٥٤هـ). كما أنّ الثقافة العقلية المنطقية ليست مستمدة بالضرورة من المنطق الصوري، إذ تطوّر لدى الشعوب منطق إنساني «طبيعي» ترقّى به الإنسان ترقياً كبيراً. وليس هناك ما يمنع من دخول عناصر عقلية عفواً في المرحلة السابقة، أي المرحلة العربية الإسلامية بسبب المشاركة الإسلامية التي مثّلها الأعاجم على اختلاف أعراقهم وما انحدر إليهم من آثار الفكر وصوب العقول دون أن يكون ذلك عن طريق ترجمة الكتب المنطقية ضرورة.

---

(١) انظر: الخوارزمي، مفاتيح العلوم، ص ٤، ٧٩ وما يليها.

2. الدرس الصوتي: أصوله واتجاهاته:

تتصل معرفة جهاز النطق عند الإنسان بالدرس الصّوتي اتصالاً وثيقاً، لأنها منطلق هذا الدرس أصلاً. وإذا نظرنا إلى الدرس الصوتي عند العرب من الوجهة اللسانية الحديثة تبين لنا أنّ هذا الدّرس يقسم - كما يقسم علم الأصوات الحديث - على قسمين كبيرين، هما: الدرس الصوتي المعادل للفونتيك، والدرس الصوتي المعادل للفونولوجيا. أما الدرس الأول فمعنيّ بالأصوات من جهات متعددة، كالجهة النطقية والسمعية والفيزيائية والتجريبية. على حين يعنى الدرس الآخر بالتشكيل الصوتي في مقاطع وأبنية، ويعرض لما يأتلف من الأصوات وما يختلف. ويستطيع الدارس أن يلقي نظرة على «مقدمة كتاب العين» للخليل بن أحمد الفراهيدي ليتبيَّن له وجود هذين القسمين من أقسام علم الأصوات على النحو الذي وصفنا[١]. ولن نستبق الحديث في هذا الجزء من البحث لتناول المعارف الصوتية عامة ومعرفة جهاز النطق خاصة، لأننا مدعوّون للنظر في نشأة الدرس الصوتي وأصوله واتجاهاته تأسيساً لما سيأتي لاحقاً.

لقد ظهر الدرس الصوتي عند العرب في القرن الثاني للهجرة، وهو قرن نشأة العلوم وتوطيد المعارف العربية الإسلامية ضمن جوّ علمي ناهض مبعثه أصلاً ذلك المفهوم الذي أشرنا إليه سابقاً، وهو مفهوم «العلم» الذي أتى به الدين الجديد وبثّه في العالمين. ولما كان الدرس

(١) انظر للتوسع: كتابنا، أصالة علم الأصوات عند الخليل من خلال مقدمة كتاب العين.

الصوتي جزءاً من علوم اللغة صحّ أن ينطبق عليه ما ينطبق عليها من أسباب دعت إلى نشأتها كالخوف على العربية من الاندثار، وخدمة القرآن الكريم، وتلبية الحاجات الجديدة في التعليم، والاستجابة لدواعي التمدّن، وانتشار الأدوات العلمية وما تحتاجه من أموال. واستجابة لما تقدّم تراجعت الخصائص الشفهية للعربية فصارت تخصّ الشعر بعد أن كانت تستبد باللغة كلّها. فاللغة صارت تدوّن وفق قواعد وأسس بعد أن طوّرت الكتابة العربية وصارت سهلة التعلّم كثيرة التداول. وقد أدخل هذا العربية في طور النثر المرسل الذي عماده الطول والتراخي والتشكيل المكاني البصري. على حين كان أقرب إلى الخصائص الشفهية باعتماده على الإيقاع والتصوير والتكثيف.

وهناك أصلان لهذا الدرس الصوتي انبثق منهما بعد أن توافرت له الأسباب المتقدّمة. هما اللغة ومعارفها، والقراءات القرآنية ووجوهها الصوتية. فاللغة التي رأينا فيما تقدّم أنها مظهر معارف العرب ومجلى حياتهم ومستودع تاريخهم دخلت مرحلة جديدة قوامها الجمع والتدوين والتصنيف والدراسة. ومن اللافت للنظر حقاً أن يبدأ جمع اللغة عن طريق تدوين المفردات بحسب مجالاتها الدلالية والمعرفية. وكان من هذا جمّ غفير من الرسائل في الموضوعات المعرفية المتعدّدة كخلق الإنسان وصفات النساء، والأخبية والبيوت وصفة الجبال والشعاب والأمتعة، والإبل والغنم والطير، والشمس والقمر، والليل والنهار، والحياض والأرشية والدلاء، والخمر، والزرع، والكرم والعنب، وأسماء البقول والأشجار،





والرياح والسحاب والمطر، والوحوش، والحشرات والسلاح، ونحو ذلك مما انحلّ في تضاعيف معاجم اللغة وكتبها الجامعة[١]. وقد برز من هذه الموضوعات التي جمعت في صعيد واحد موضوع التأليف في خلق الإنسان، وهو موضوع مثّل تياراً من تيارات التأليف في اللغة حتى القرن العاشر للهجرة لدى السيوطي (ت٩١١هـ). وللغويين العرب في هذا الصدد نحو من خمسين مصنفاً ابتدأت مع القرن الثاني للهجرة واستمرت إلى القرن العاشر كما تقدّم. وقد ظهر في هذا المصنفات من الدقة واستقصاء التفصيلات في تسمية كل ما يتعلق بخلق الإنسان ما يدعو إلى الإعجاب حقاً[٢]. ويشير هذا إلى أنّ معرفة ما يتصل بالنطق - وهو ما يخصنّا في هذا المجال - أمر متداول لدى اللغويين الذين سجّلوا ما جاء عن العرب دون تصرّف. ولقد تبيّن لي حين عملت في مقدمة كتاب العين للخليل أنّ كلّ المصطلحات التي استعملها الخليل ترجع إلى أصول لغوية معروفة عند العرب ومدوّنة لدى اللغويين. وينطبق هذا على ما يتصل بجهاز النطق انطباقاً تاماً. وبإمكان الدارس إذا أراد التثبت من ذلك أن

---

(١) انظر حول هذه الرسائل الموضوعية: حسين نصّار، المعجم العربي، ١/١٢٣-١٧١، وهناك ذكر رسائل كثيرة من هذا النحو في: فؤاد سزكين، تاريخ التراث العربي، المجلد الثامن، الجزء الأول.

(٢) انظر للتوسع: وحيهة السطل، التأليف في خلق الإنسان من خلال معاجم المعاني. وإحسان النص «مصنفات اللغويين العرب في خلق الإنسان»، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد الثالث والسبعون، الجزء الثاني، ص ٢١٩- ٢٣٦.

يعرض هذه المصطلحات أو المفردات على كتب خلق الإنسان نحو كتاب ثابت بن أبي ثابت (من علماء القرن الثالث) وكتاب الأصمعي (ت٢١٦هـ) وكتاب الزجّاج (ت٣١١هـ)، أو كتب الغريب والصفات والمعاني، كالتلخيص لأبي هلال العسكري (ت٣٩٥هـ) وفقه اللغة وسرّ العربية للثعالبي (ت٤٢٩هـ)، والغريب المصنف لأبي عبيد القاسم بن سلام (ت٢٢٤هـ)، والمخصّص لابن سيده (ت٤٥٨هـ) وغيرها، فضلاً عن معاجم الألفاظ الكبرى والموسوعات اللغوية والأدبية.

أما القراءات القرآنية فهي وجوه للأداء الشفهي للمصحف الشريف الذي دوّن فيه القرآن الكريم. وطبيعي أن تعتمد الأمة التي كانت أمّية دأبها السماع والرواية على المشافهة أصلاً. ولذلك سعى الصحابة إلى حفظ القرآن في الصدور وإقرائه الناس من غير الرجوع إلى المدوّنات التي ثبّتت فيها آي القرآن. ولم يغيّر جمع القرآن في المصاحف من أهمية القراءة الشفهية المعتمدة على الحفظ، فحين وضع القرّاء العلماء شروطاً للقراءة المقبولة (التي تعدّ قرآناً) جعلوا الرواية الشفهية عن الرسولﷺ بإجماع في المقدمة من هذه الشروط التي بها ضبط القرآن وحفظ من جهات النقل والكتابة واللغة[1]. أما الوجوه التي يشتمل عليها معنى القراءات فعديدة، وهي وجوه لغوية إعرابية أو صرفية أو دلالية أو صوتية. لكنّ القراءات تبقى وجوهاً صوتية كاملة لاعتمادها كما أسلفنا على النطق المجوّد والسماع الدقيق والتلقي الصحيح. وليس غريباً على أمة حفظت الشعر وما فيه من

(١) انظر: مكي بن أبي طالب القيسي، كتاب الإبانة عن معاني القراءات، ص ٣٩.

علوم رواية أن تحفظ القرآن الكريم وتتلوه قراءة لا تنقطع عنها الألسنة أبداً. وفي الوجوه الصوتية الخاصة للقراءات جمّ من الظواهر التي تحتاج إلى انتحاء سمت العرب الفصحاء في النطق الذين كانت لهم اختلافات جوّزها القرّاء حين تستوفي القراءة شروطها، على حين انفردت القراءات الشاذة بأمثلة من هذه الاختلافات وإن منع الناس من القراءة بها. ويشير هذا إلى أنّ القراءات صارت علماً له مسائل ومباحث تجمعها أسس وغايات واضحة. وليست الإمالة والإدغام والإظهار والهمز والمدّ والقصر والتشديد والتخفيف وحركات الأبنية إلا شواهد على ما تقدّم.

وهكذا تضافر هذان الأصلان: اللغة ومعارفها المتصلة بخلق الإنسان، والقراءات القرآنية ووجوهها الصوتية لابتعاث هذا الدرس الصوتي الذي لم يكن غريباً على تلك النهضة العلمية الشاملة. ويمكن أن نضيف إلى هذين الأصلين شيئاً من عناصر الثقافة التي سادت بعد ظهور الإسلام يتّصل بالمعلومات العلمية التي تخصّ خلق الإنسان، وأحواله في الصحة والمرض، وما يتعلّق بذلك من نصائح عبّر عنها القرآن الكريم والحديث الشريف ممّا يصحّ وصفه بالطبّ الإسلامي الذي كان الطبّ النبوي جزءاً منه. وقد عني أئمة الحديث بمعرفة ما روي عن الرسولﷺ من أحاديث تحوي وصفاً للكثير من الأمراض والأدوية، وحكماً تضمّ نصائح طبية هدفها الوقاية والحفاظ على الصحة. من ذلك الإمام مالك (ت١٧٩هـ) في «الموطّأ» وأصحاب الكتب الستة ومن إليهم، إذ خصّصوا أبواباً (أو كتباً ضمن كتبهم الجامعة) لما صحّ عندهم من ذلك.

ثم وضعت رسائل مفردة وكتب جامعة وازن بعضها بين الطبّ النبوي والطبّ اليوناني في أمثلة كثيرة على النحو الذي فعله ابن قيم الجوزية (ت٧٥١هـ) في كتابه «الطب النبوي»[1].

أما اتجاهات الدرس الصَّوتي فقد تعدّدت بتعدّد مجالات التوظيف في العلوم العربية والإسلامية. وأول هذه الاتجاهات وأصلها الاتجاه اللغوي الذي ابتدأه الخليل بن أحمد الفراهيدي في مقدمة كتاب العين، وهو أول معجم في العربية أراد به الخليل جمع ما قيل وما يمكن أن يقال من الكلام العربي على سبيل من الابتداع النادر. ثمّ صار دأب اللغويين بعد الخليل الاستعانة بخلاصة للدرس الصوتي لتفسير وجوه صرفية ذات منشأ صوتي كالإدغام، وهو ما شرعه سيبويه (ت١٨٠هـ) في «الكتاب»، ووسّعه ابن جني (ت٣٩٢هـ) من بعده، وصار بعد ذلك دُولة في كتب أهل الصّرف خاصة. وثاني هذه الاتجاهات اتجاه مثّله دارسو الإعجاز والبلاغة والنقد ممّن عرضوا لفصاحة الكلمة بحسب المخارج وائتلاف الحروف وبيان حسن التأليف أو قبحه. نذكر من هؤلاء الرماني (ت٣٨٦هـ) وابن سنان الخفاجي (ت٤٦٦هـ) وعبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ) وفخر الدين الرازي (ت٦٠٦هـ) والسكاكي (ت٦٢٦هـ) وبهاء الدين السبكي (ت٧٧٣هـ) وغيرهم. أما ثالث هذه الاتجاهات وأهمّها وأكثرها مؤلفات فهو علم التجويد الذي ظهر في القرن الرابع نتيجة تضافر القراءات من جهة والدرس الصوتي من جهة أخرى.فالقراءات

---

(١) انظر: ابن قيّم الجوزية، الطبّ النبوي، ص (هـ – ز).

التي بعثت في اللغويين أنظاراً صوتية حرّضتهم على الدّرس المنظّم عادت، بعد أن تطاول العهد بالناس فابتعدوا عن السليقة وحسن التلقي، إلى اللغويّين لتستعين بدرسهم الصّوتي لتعليم تجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة. وترجع بداية علم التجويد من حيث المصطلح والتأليف إلى القرن الرابع للهجرة عند ابن مجاهد (ت٣٢٤هـ) والخاقاني (ت٣٢٥هـ). ثم ظهر بعد ذلك من المؤلفات حتى العصر الحاضر الشيء الكثير ممّا لا يزال معظمه مخطوطاً معروفاً أو تائهاً مجهولاً. وربّما كان مكي ابن أبي طالب القيسي (ت٤٣٧هـ) رائد التأليف المنظّم في هذا المجال[١].

ويأتي الاتجاه الرابع، وهو اتجاه علمي، ثمرة للترجمة المباشرة عن الطبّ اليوناني، وقد مثل هذا ابن سينا (ت٤٢٨هـ) في رسالته «رسالة أسباب حدوث الحروف». وقد عرض فيها جوانب فيزيائية تتصل بالصوت، وجوانب تشريحية تتعلق بأعضاء النطق الرئيسة كاللسان والحنجرة، وجوانب ترتبط بآلية إصدار الأصوات. وفي الرسالة جوانب أخرى فيها موازنات بين الأصوات العربية وبعض الأصوات في اللغات الأعجمية التي عرفها ابن سينا. وتأتي الرسالة مخالفة لتطوّر الدرس الصوتي في اتجاهاته الثلاثة السابقة، إذْ بدت استجابة لنوع من التعالي بإظهار معرفة جديدة لا قبل للغويين ومن تقيّلهم من علماء التجويد والبلاغة بها. ومع أن الرسالة تمتاز بتطوّر في الأسلوب العلمي من خلال توليد

(١) انظر للتوسّع في جهود علماء التجويد: غانم قدوري الحمد، الدراسات الصوتية عند علماء التجويد.

المصطلحات وضبط التعبير والابتعاد عن خصائص اللغة الأدبيـة، فإنهـا لـم تضف شيئاً ذا بال إلى تلك الحصيلة التي توصّل إليها اللغويون ومـن إليهـم من أصحاب الثقافة العربية الإسلامية الخالصة. كما أنهـا مـع مـا فيهـا مـن إطناب في تشريح الحنجرة واللسان، لم تسدّ النقـص فـي وصـف اللغويـين لأعضاء النطق الداخلية مما يعتمد على التشريح كالوترين الصوتيين اللذيـن ظـلاّ مجهوليـن، وإن ظهـر شـيء مـن معرفـة أثرهمـا فـي النطـق وصفاتـه. فالرسالة التي لا تخلو من مصطلحات وفروق دقيقة بـدت حقـاً منبتـة عـن سياقها المعرفي من حيث الوجهة والأثر. فقد كانت وجهتها وجهة علميـة نظرية اتكأت على علوم دخيلة، كما كـان أثرهـا فـي الدراسـات الصوتيـة التالية محدوداً جداً[١].

3. جهاز النطق: أعضاؤه وآلياته:

جهاز النطق واحد من أجهزة الإنسان التي تتألف من جملـة أعضـاء تؤدي غرضاً حيوياً خاصّاً، مثله في ذلك مثل جهاز التنفس وجهاز الهضم. والجهاز عامة يطلق في المصطلحات العلمية على الأداة التي تـؤدي عمـلاً معيناً كجهاز التقطير أو جهاز التبخير، كما يطلق على مجموعة من النـاس تؤدي عملاً منظماً كجهـاز الدعايـة وجهـاز الجاسوسية. وقـد شـاع فـي الاستعمال مؤخـراً تراكيـب وصفيـة أو إضافيـة يدخـل الجهـاز طرفـاً فيهـا فيؤدي دلالة اصطلاحية محدثة، نحو: جهاز اللاسلكي، وجهـاز التصويـر، وجهاز التحكّم، وجهاز الاستقبال، والأجهزة الكهرطبية، ونحو ذلك ممـا

(١) انظر: الحمد، الدراسات الصوتية...، ص ٩٨.

يقصد به «الآلة». وأصل دلالة الجهاز هو كلّ ما يحتاج إليه في شأن من الشؤون كجهاز المسافر وجهاز العروس وجهاز الجيش[١]. أما المقصود بجهاز النطق هنا فهو جملة الأعضاء التي تشترك في النطق وإنتاج الأصوات، وآليات النطق وما ينطوي عليه من أوصاف حركية مساعدة، وما يلحق بذلك من وسائل إيضاحية. ومن المعروف أن النطق ليس الوظيفة الوحيدة لهذا الجهاز شأنه في ذلك شأن الكثير من أجهزة الإنسان، إذ له وظائف جمّة كالشمّ والذوق والتنفس وتقطيع الطعام وبلعه، ونحو ذلك ممّا تؤديه أعضاء ذلك الجهاز مجتمعة أو منفردة.

أما مادة هذا القسم من البحث فمستمدّة من آثار اللغويين المتقدّمين مع ملاحظة أن مفهوم اللغوي هنا يشمل كلّ من له تعلّق بصناعة النحو والصرف والمفردات ونحوها من علوم العربية كالبلاغة وما يضاف إليها كالإعجاز والنقد. أما ما خلّفه علماء التجويد فسيكون مادة للموازنة وتتبّع حلقات الدرس الصوتي. ولن يكون البحث معنيّاً بحال من الأحوال بأي مادة تستمدّ من كتب الطبّ والتشريح أو الفيزياء وما يضاف إليها من معارف الحكماء العرب القدامى.

ذكر اللغويون الذين عنوا بالدرس الصوتي على اختلاف اتجاهاتهم جملة صالحة من أعضاء النطق عند الإنسان في أثناء وصفهم للمخارج وتحديدهم للصفات. ويلاحظ أنّ إيرادهم هذه الأعضاء يأتي دون قصد معيّن للإلمام بجهاز النطق مستقلاً عن المادّة التي تكون موضوعاً للدرس.

(١) انظر: المعجم الوسيط، ١/١٤٣، والمصطلحات العلمية والفنية، ١/١٣٠.





وربما كان وراء ذلك إلفهم الحديث عن هذه الأعضاء من خلال ذلك الحقل الدلالي الواسع المتصل بخلق الإنسان. أما حديثهم عن آليات النطق وأوضاعه فربما كان ثمرة تجاربهم وملاحظتهم على نحو ما عرف عن رائدهم الخليل بن أحمد من «ذوق» للحروف وإنعام للنظر وتدبّر في مخرج الكلام كلِّه[١]. وليس بين أيدينا ما يشير إلى تحديد كلّي لجهاز النطق والتمثيل له إلا ما وقفنا عليه لدى ابن جني والسكاكي والأستراباذي ممّا سيرد في موضعه من هذا البحث.

وسنعرض في هذه الفقرة حصيلة ما جاء لدى جمّ غفير من اللغويين، وهم الخليل (ت١٧٥هـ)، وسيبويه (١٨٠هـ)، وابن دريد (ت٣٢١هـ)، والزجّاجي (ت٣٤٠هـ)، والأزهري (٣٧٠هـ)، وابن جني (ت٣٩٢هـ)، والزمخشري (ت٥٣٨هـ)، والرازي (ت٦٠٦هـ)، والسكاكي (ت٦٢٦هـ)، وابن يعيش (ت٦٤٣هـ)، وابن الحاجب (ت٦٤٦هـ)، وابن عصفور (ت٦٦٩هـ)، والأستراباذي (ت٦٨٨هـ)، وأبو حيان الأندلسي (ت٧٤٥هـ).

١- الصّدر وما ينبعث منه: ذكر الخليل «مخرج الكلام كلِّه» دون تحديد (٤٧/١)، كما ذكر «الجوف»، وهو فراغ لا يحدّد بمخرج (٥٧/١)، كما ذكر «الهواء» (٥٧/١-٥٨). وذكر الأزهري «الجوف» و«الهواء» نقلاً عمّن سمع الخليل (٤٨/١-٥٠). وكذلك ذكر أبو حيان من روايات عن الخليل «الجوف» (ص٢٩). وكذلك ابن يعيش

(١) انظر: الخليل، كتاب العين، ٤٧/١.

(١٢٥/١٠) أما سيبويه فذكر «الهواء» (٤٣٥/٤)، وكذلك ابن دريد (٤٥/١) أما ابن يعيش فذكر «الهواء» (١٢٤/١٠)، و«هواء الصوت» (١٣٠/١٠). وذكر ابن الحاجب «هواء الصوت»، والأستراباذي «هواء الفم» (٢٥١/٣) و«هواء الصوت» (٢٦١/٣) و«ذات الهواء» (٢٦١/٣) و«ذو الهواء» (٢٦٣/٣)، وابن عصفور «هواء الصوت» (٦٧٤/٢). أما «الصدر» فذكره سيبويه (٥٤٨/٣) وهو يريد الحنجرة، لأنه وصف الهمزة بأنها نبرة في الصدر تخرج باجتهاد. وكذلك ابن جني الذي ذكر «الصدى» المنبعث من الصدر (٨/١) و«صوت الصدر» (٦٣/١) و«من الصدر» (٤٣/١). والصدر عند ابن جني يشير إلى الحنجرة والوترين الصوتيين وإن لم يعرض لذكرهما، وذكر ابن يعيش «الصدر» وهو يحدّد أقصى الحلق (١٢٤/١٠)، وذكره أيضاً وهو يشرح الفرق بين الهمس والرخاوة (١٢٩/١٠). كما ذكر الأستراباذي «الصدر» (٢٥٨/٣)، (٢٥٩/٣)، (٢٦٣/٣). وهو يشير إلى أثر الوترين في الجهر، وإلى مجرى النفس الذي هو مركّب الصوت. وذكر سيبويه «النفس» (٤٣٤/٤)، وكذلك ابن دريد (٤٣/١)، وابن جني (٨/١، ٦٠، ٦٣)، وابن يعيش (١٢٨/١٠)، وابن الحاجب (٢٥٧/٣)، وابن عصفور (٦٧٢/٢) والأستراباذي (٢٥٩/٣). ويلاحظ أنّ معرفة الصدر وما ينبعث منه ليست متيسّرة مادامت تعتمد الملاحظة والنظر من الخارج، ولذلك اعتراها شيء من الغموض.

٢- الحلق وما يتصل به: عرف اللغويون الحلق وحدّدوا أجزاءه

معرفة شبه دقيقة. فقد ذكر الخليل «الحلق» (١/٤٧، ٤٨، ٥٢، ٥٨) وأراد به عموم الدلالة تارة، أي ما يعادل مخرج الكلام كلّه، وخصوصها تارة أخرى، أي ما ينطبق على الحلق نفسه بوصفه عضواً من أعضاء النطق. وذكر الخليل أيضاً «مدارج الحلق» (١/٥٧)، و«أقصى الحلق» (١/٥٢). وجاء في التهذيب من روايات مختلفة عن الخليل «الحلق» (١/٤٤) و«أقصى الحلق» و«أدخلها في الحلق» و«أقصاها في الحلق» (١/٤٤). وفي تذكرة النحاة جاء أيضاً «أقصى الحلق» و«أدناه» و«الحلق» (ص٢٥-٢٧). أما سيبويه فأوضح أجزاء الحلق إيضاحاً لا يحتاج إلى بيان. فقد ذكر «الحلق» و«أقصاها مخرجاً» في الحلق، و«وسط الحلق» و«أدناها مخرجاً» (٤/٤٣٣). وذكر ابن دريد «الحلق» و«أقصى الحلق» و«أدناه» (١/٤٣-٤٥). أما ابن جني فذكر الحلق و«أقصى الحلق» و«أسفله وأقصاه» و«وسط الحلق» (١/٦، ٩، ٤٦، ٤٧). أما «أدنى الحلق» فعبّر عنه بـ «ما فوق ذلك مع أول الفم» (١/٤٧) وذكر الزمخشري «أقصى الحلق» و«أوسطه» و«أدناه» (١٠/١٢٣). أما ابن يعيش فذكر «أدنى الحلق» و«وسط الحلق»، و«أقصاه من أسفله إلى ما يلي الصدر» (١٠/١٢٤). وذكر الرازي «أقصى الحلق»و«وسط الحلق» و«أدناه إلى الفم» (ص١١٨)، وكذلك ابن الحاجب (٣/٢٥٠)، وتابعه الأستراباذي مع زيادة وشيء من التصرّف، فأدنى الحلق عنده هو «رأس الحلق» (٣/٢٥١)، وهناك «مدارج الحلق» التي ذكرها الخليل. وليس لدى ابن عصفور جديد، فقد ذكر «الحلق» و«أقصى الحلق»، و«وسطه» و«أدنى مخارج الحلق» (٢/٦٦٨-٦٧٩). ويلاحظ أنّ هؤلاء اللغويين

عبّروا بـ «أقصى الحلق» عن الحنجرة التي لم ترد عندهم مع أن كلمة الحنجرة معروفة في كتب خلق الإنسان، كما أنها وردت في القرآن الكريم بصيغة الجمع، أي «الحناجر». والدليل على ذلك أنهم نسبوا صوتي الهمزة والهاء إلى «أقصى الحلق»، وهما في الدراسات الحديثة، صوتان حنجريان. وكان ابن سينا ذكر ذلك في رسالته[١]. لكن هؤلاء جميعاً لم يعرفوا الوترين الصوتيين، لأنهم اعتمدوا الملاحظة وتتبّع الأثر والوصف الكلّي ولم يعتمدوا التشريح والوصف الطبيّ الدقيق مما كان بعيداً عن متناولهم. ولكنّ الغريب حقاً هو أنّ ابن سينا الذي وصف تشريح الحنجرة وصفاً مسهباً لم يعرض للوترين الصوتيين مطلقاً. ويبدو أن ملاحظتهم الدقيقة أوصلتهم إلى معرفة أثر الوترين في التصويت والجهر ممّا أشرنا إليه إشارات لدى سيبويه وابن جني والأستراباذي الذي توسّع في بيان دور الصدر وما ينبعث منه من أصداء، ممّا يدلّ على أثر الجهر دلالة قاطعة[٢]. وتجدر الإشارة إلى أنّ الخوارزمي «ذكر الحنجرة» في «مفاتيح العلوم» معرّفاً إياها بأنها آلة الصوت، كما أنّ ابن البناء (ت ٤٧١هـ) أورد في أحد كتبه عبارة «ترديد الحنجرة» التي ربما قصد بها المبالغة في الجهر[٣].

---

(١) انظر: ابن سينا، رسالة أسباب حدوث الحروف، ص ٧٢.

(٢) انظر: سيبويه، الكتاب، ٥٤٨/٣، وابن جني، سرّ الصناعة، ٨/١، والأستراباذي، شرح الشافية، ٢٥٨/٣- ٢٥٩.

(٣) انظر: الخوارزمي، مفاتيح العلوم، ص ٩٤، وابن البناء، كتاب بيان العيوب التي يجب أن يجتنبها القراء، وإيضاح الأدوات التي بني عليها الإقراء، ص٣٢.

٣- اللهاة: ذكر بعض اللغويين «اللهاة» صراحة، وعرفوا أنها جزء من الحنك الأعلى، نجد ذلك عند الخليل الذي ذكر «اللهاة» و«مدرج اللهاة» (١/٥٢، ٥٧، ٥٨). كما نقل عنه ذكرها في «التهذيب» (١/٤٤) و«تذكرة النحاة» (ص٢٧). ووقف ابن دريد عليها أيضاً (١/٤٥). أما ابن يعيش فقد ذكر «اللهاة» وشرحها بقوله: «اللهاة أقصى سقف الفم المطبق على الفم، الجمع: اللها» (١٠/١٣١). واكتفى بعض اللغويين بذكر ما يرادفها كقول سيبويه: «من أقصى اللسان وما فوقه من الحنك الأعلى» (٤/٤٣٣)، وابن عصفور (٢/٦٦٩). أما الزمخشري (١٠/١٢٣)، والرازي (ص١١٨)، وابن الحاجب (٣/٢٥٠) فاكتفوا بـ «ما فوقه من الحنك» للدلالة على اللهاة.

٤- الحنك الأعلى وأجزاؤه: وقف اللغويون عند الحنك الأعلى كثيراً لما له من دور في التصويت. والحنك الأعلى عندهم هو سقف أعلى الفم، لكنهم نسبوا أجزاء من الحنك الأعلى إلى الفم عامة. فالخليل ذكر «شَجْر الفم» وشرحه بـ «مفرج الفم» (١/٥٨)، وكذلك نقل عنه في التهذيب (١/٥٠)، وتذكرة النحاة (ص٢٧، ٢٨) وشرح المفصّل (١٠/١٢٨) وزاد ابن يعيش على ما تقدم قوله «...ما بين اللحيين» (١٠/١٣١). وذكر الخليل «أقصى الفم»، وهو يريد المكان الذي يجاور اللهاة. (١/٥٢)، وكذلك نقل عنه في التهذيب (١/٤٤). وجاء لدى ابن دريد «أقصى الفم» (١/٤٤)، وهو يشير إلى القاف والكاف اللذين وصفا بأنهما لهويان. كما جاء لديه «أدنى الفم» (١/٤٤)، وهو يريد موضع

الحروف النِّطعية واللثوية. أما ابن جني فذكر «أول الفم» (٤٧/١) مشيراً إلى أدنى الحلق عند مخرج العين والخاء. كما ذكر «مقدم الفم»، وهو يريد موضع الكاف، أي اللهاة (٤٧/١)، وكذلك فعل ابن يعيش (١٢٤/١٠)، مع أنه صرّح بأن الكاف والقاف لهويتان. ووصف الأستراباذي موضع الكاف بأنه قريب من «خارج الفم» (٥٢/٣).

أما الجزء الذي يلي اللهاة ويتجاوز مفرج الفم فهو الطبق الذي يكون عنده الإطباق، وليس ثمة إشارة إلى الطبق إلا ما جاء لدى الخليل من «الطبقتين» (٥٢/١)، و«الطبقين» كما في التهذيب (٤٤/١) نقلاً عنه. ولا ندري على وجه الدقة المقصود من كلام الخليل الذي افتقدنا أثره في المؤلفات التالية من غير سبب واضح. لكن اللغويين عبّروا عن الحنك الأعلى عامة بـ «الغار» أو «الغار الأعلى»، ثم فرّقوا بين «مقدم الغار الأعلى» القريب من المنطقة التي يلاحظ عليها التحزيز، و«نطع الغار الأعلى» الذي ربما قصدوا به الجزء الخلفي من الحنك الأعلى كلّه. ومع أنّ كلمة «النطع» لا تشير بالضرورة، كما جاء في معاجم اللغة، إلى الجزء الخلفي الذي ندعوه بالطبق، فإنّ في مادة «نطع» ما يشير إلى التعمّق باتجاه الحلق، مما يرجّح أن تكون دلالة النطع قريبة من دلالة «الطبق»، أي الحنك الرخو[1]. وجاء لدى الأستراباذي إشارة واضحة إلى هذا

(١) انظر: الصحاح، ٥٧٨/٢، واللسان، ٣٥٧/٨، والقاموس، ص ٩٩١، والتاج، ٢٦١/٢٢- ٢٦٥. وجاء في التاج: «المتنطعون وهم المتعمقون الغالون، والذين يتكلمون بأقصى حلوقهم تكبراً»، وجاء في الموضع نفسه عن ابن

الموضع حين تحدّث عن الحروف المطبقة، فقال: «لأنك ترفع لسانك إليه فيصير الحنك كالطبق على اللسان، فتكون الحروف التي تخرج بينهما مطبقاً عليها.» (٢٦٢/٣) وقد ذكر الخليل «نطع الغار الأعلى» حيث تحدّث عن الحروف النطعية. (٥٨/١)، وكذلك نقلت عنه في التهذيب. (٤٨/١)، وتذكرة النحاة (ص٢٨) وشرح المفصل (١٢٨/١٠). لكن ابن يعيش يجعل نطع الغار الأعلى كمقدمه أو وسطه. يقول: «وهي نطعية لأن مبدأها من نطع الغار الأعلى، وهو وسطه يظهر فيه كالتحزيز». (١٢٥/١٠)، وهي أيضاً نطعية، لأن مبدأها من «نطع الفم»، (١٣١/١٠). وذكر الخليل «الغار الأعلى» دون تحديد (٥٢/١)، ونقلت عنه في التهذيب (٥١/١). وكذلك ابن دريد (٤٤/١) قاصداً موضع الظاء والثاء والذال والضاد. وعبّر الخليل عن الجزء المتقدّم من الغار بـ «طرف غار الفم» مما يجاور ذلق اللسان (٥٢/١). ونقلت عنه في التهذيب (٥١/١)، وكذلك ابن دريد (٤٤/١) قاصداً موضع الظاء والثاء والذال والضاد. وعبّر الخليل عن الجزء المتقدّم من الغار بـ «طرف غار الفم» مما يجاور ذلق اللسان (٥١/١). وروي عنه في «التهذيب» (٥٠/١) «مقدم الغار الأعلى» للدلالة على موضع الحروف الذلقية (ل.ن.ر)، وكذلك في تذكرة النحاة (ص٢٦). وذكر ابن دريد الشيء نفسه (٤٥/١). وجاء في تذكرة النحاة عن الأخفش رواية عن الخليل «الشبك المثنى» (ص٣٠)

الأثير: «هو مأخوذ من النطع، وهو الغار الأعلى في الفم، قال: ثم استعمل في كلّ تعمّق قولاً وفعلاً». أما الوسيط فذكر أنَّ النطع: ظهر الغار الأعلى. ٩٣٠/٢.





للدلالة على مواضع التحزيز من الغار.

وجاء لدى الكثير من اللغويين كلمة «الحنك» أو «الحنك الأعلى» للدلالة على سقف الفم عامة. ففي تذكرة النحاة برواية النضر بن شميل عن الخليل «حنكها»، وهو يريد حنك اللهاة (ص٢٧). وفي التذكرة أيضاً برواية الأخفش عن الخليل: «فويق الحنك» و«بين الحنك»، وهو يقصد موضع القاف أولاً، وموضع الشين ثانياً (ص٢٩). و«الحنك الأعلى» مما يقرب من الشبك المثنى (ص٣٠). وجاء لدى سيبويه «الحنك الأعلى» (٤/٤٣٣) مشيراً إلى موضع اللهاة، وإلى ما يوازي طرف اللسان في مخرج اللام، و«وسط الحنك الأعلى» دالاً على موضع الجيم والشين والياء (٤/٤٣٣). وجاء لدى سيبويه أيضاً «الحنك الأعلى» للدلالة على موضع الإطباق (٤/٤٣٦) كما جاء لديه «الحنك» (٤/٤٣٦) وهو يريد الحنك الأعلى من مقدّمه تارة، ومن مؤخره تارة أخرى. والدليل على ذلك ذكره له حين رفع اللسان حين النطق بالياء الصائتة، وهو موضع متقدّم، ورفع اللسان حين الإطباق، وهو موضع متأخر. وذكر ابن دريد «الحنك الأعلى» للدلالة على ما وازى وسط اللسان (١/٤٥). أما ابن جني فذكر «الحنك»، وهو يشرح الياء الصائتة (١/٨)، وذكر «الحنك الأعلى»، وهو يوضّح كيفية الاستعلاء (١/٦٢)، وذكر «وسط الحنك الأعلى» جرياً مع ما بيّنه سيبويه (١/٤٧). وجاء لدى الرازي «الحنك» في سياق الحديث عن القاف (ص١١٨) و«وسط الحنك» (ص١١٨) وهو يريد وسط الحنك الأعلى مقارنة بما جاء لدى سيبويه. و«الحنك الأعلى»

لشرح مخرج اللام على نحو ما تقدّم لدى سيبويه أيضاً (ص١١٩). وذكر الزمخشري «الحنك» حين الحديث عن القاف والكاف اللهويتين (١٢٣/١٠). وذكر «الحنك الأعلى» حين الحديث عن اللام (١٢٤/١٠) على نحو ما تقدم لدى سيبويه. و«وسط الحنك» وهو يريد وسط الحنك الأعلى مقارنة بما جاء لدى سيبويه أيضاً. (١٢٤/١٠). وليس لدى ابن عصفور ما يختلف به عن سيبويه (٦٦٩/٢-٦٧٨). أما ابن يعيش فذكر «الحنك» و«وسط الحنك» و«الحنك الأعلى» مقتفياً أثر سيبويه (١٢٣/١٠، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٩، ١٣٠). واكتفى ابن الحاجب بذكر «الحنك» دون وصف (٢٥٠/٣، ٢٥٨)، على حين اعتمد ابن يعيش شارحه على سيبويه، فذكر «الحنك الأعلى» و«وسط الحنك الأعلى» (٢٥٢/١٠، ٢٥٣).

أما «اللثة» فجاءت عن الخليل (٥٨/١) من دون شرح. وكذلك في التهذيب (٤٨/١) و«تذكرة النحاة» (ص٢٨). كما جاءت لدى ابن يعيش (١٢٥/١٠).

٥- اللسان وأجزاؤه: عرف اللغويون من دارسي الأصوات اللسان معرفة واسعة، إذ ذكروا أجزاءه، ووقفوا على أوصافه تفصيلاً. من ذلك «عكدة اللسان»، وهي الجزء الموافق لأقصى الفم. ذكر ذلك الخليل (٥٢/١)، كما نقل عنه في التهذيب (٤٤/١) و«العكد»، كما في تذكرة النحاة (ص٣٠) وذكر ابن دريد «عكدة اللسان» (٤٤/١). كما ذكروا «أصل اللسان» الذي عبّروا به عن جذر اللسان، كما في التهذيب

(٥١/١) عن الخليل، وكذلك في تذكرة النحاة (ص٢٦). وذكر ذلك سيبويه (٤٣٣/٤)، وابن جني (٤٧/١)، والرازي (ص١١٨)، والزمخشري (١٢٣/١٠)، وابن الحاجب (٢٥٠/٣)، وابن عصفور (٦٦٩/٢). وذكر اللغويون أيضاً «أقصى اللسان»، كما جاء لدى سيبويه (٤٣٣/٤)، وابن جني (٤٧/١)، والزمخشري (١٢٣/١٠)، والرازي (ص١١٨)، وابن الحاجب (٢٥٠/٣)، وابن عصفور (٦٦٩/٢). وانفرد ابن دريد بذكر «أسفل اللسان» (٤٤/١). وذكروا «ظهر اللسان» كما جاء لدى الخليل (٥٢/١)، وفي التهذيب (٥١/١)، وتذكرة النحاة (ص٢٨) نقلاً عنه. وكذلك لدى سيبويه (٤٣٣/٤)، وابن جني (٤٧/١)، والرازي (ص١١٩) وابن عصفور (٦٧٠/٢)، والزمخشري (١٢٤/١٠)، والأستراباذي (٢٥٣/٣). وجاء لدى بعض اللغويين «وسط اللسان»، كما في تذكرة النحاة (ص٢٧، ٢٩) نقلاً عن الخليل. وذكر ذلك سيبويه (٤٣٣/٤)، وابن دريد (٤٤/١)، وابن جني (٤٧/١)، والرازي (ص١١٨)، وابن الحاجب (٢٥٠/٣)، وابن عصفور (٦٦٩/٢)، والزمخشري (١٢٤/١٠). وذكر اللغويون «طرف اللسان»، وهم يريدون مقدّم اللسان. جاء ذلك في التهذيب (٥١/١) عن الخليل، كما جاء عنه أيضاً في تذكرة النحاة (ص٢٨، ٣٠). وذكر ذلك سيبويه (٤٣٣/٤)، وابن دريد (٤٥/١)، وابن جني (٦٣/١) والزمخشري (١٢٤/١٠)، والرازي (ص١١٩)، وابن الحاجب (٢٥٠/٣)، وابن عصفور (٦٢٠/١). وذكروا «أسلة اللسان» للدلالة على مستدقّ طرفه. وجاء ذلك عن الخليل (٥٨/١)، كما جاء عنه في التهذيب (٥٠/١). وفي تذكرة النحاة

(ص٢٨). وذكر ذلك ابن دريد (٤٥/١) وابن يعيش (١٢٥/١٠) وجاء لدى الرازي (ص١٢٠) «الأسلات». كما ذكروا «طرف أسلة اللسان»، كما جاء لدى الخليل (٥١/١)، من رواية التهذيب (٤٤/١) نقلاً عنه. وكذلك جاء لدى الرازي (ص١٢٠). وعبّروا عن ذلك باصطلاحات متقاربة، نحو «مستدق طرف اللسان»، كما جاء لدى الخليل (٥٨/١)، وفي التهذيب (٥٠/١)، وتذكرة النحاة (ص٢٨). و«مستدق اللسان»، كما جاء لدى سيبويه (٤٣٥/٤)، والأستراباذي (٢٦١/٣). و«ناحيتا مستدق اللسان» عند ابن جني (٦٣/١)، وابن عصفور (٦٧٣/٢). و«ذلق اللسان» كما عند الخليل (٥٨/١) أو «ذولق اللسان» كما في التهذيب (٤٨/١) ولدى ابن يعيش (١٢٥/١٠) و«ذلق اللسان» نفسه، كما في تذكرة النحاة (ص٢٧)، ولدى ابن دريد (٤٥/١)، وابن جني (٦٤/١)، والرازي (ص١٢٠)، وابن عصفور (٦٧٦/٢). أو «تحديد طرفي ذلق اللسان»، كما جاء لدى الخليل (٥٨/١). أو «منتهى طرف اللسان»، كما في تذكرة النحاة (ص٢٨)، ولدى سيبويه (٤٣٦/٤)، وابن جني (٤٧/١)، والزمخشري (١٢٤/١٠) والرازي (ص١١٩)، وابن الحاجب (٢٥٠/٣)، وابن عصفور (٦٦٩/٢).

وذكروا أيضاً «شباة اللسان» و«سراة اللسان»، كما جاء في تذكرة النحاة (ص٣٠) عن الخليل. و«طرف شباة اللسان»، لدى الرازي (ص١٢٠). أو «رأس اللسان» لدى الأستراباذي (٢٥٣/٣). وذكر اللغويون «حافة اللسان» و«حافات اللسان»، أي جوانبه، كما جاء عن

الخليل في تذكرة النحاة (ص٢٨)، ولدى سيبويه (٤/٤٣٢- ٤٣٣) الذي ذكر مع حافة اللسان أول الحافة، وابن دريد الذي حدّد الحافة بقوله «حافة اللسان اليمنى» (١/٤٥)، وابن جني (١/٤٧) الذي ذكر «حافة اللسان» و«أول حافة اللسان»، والزمخشري (١٠/ ١٢٤) «أول حافة اللسان»، والرازي (ص١١٩)، وابن الحاجب (٣/ ٢٥٠) «حافتا اللسان»، وابن عصفور (٢/ ٦٦٩) «أول حافة اللسان». وشرح الأستراباذي الحافة، فقال: «للسان حافتان من أصله إلى رأسه كحافتي الوادي. وأول الحافة: أصل اللسان، وآخر الحافة: ما يلي رأسه» (٣/ ٢٥٢)، كما زاد على ابن الحاجب «أقصى إحدى حافتي اللسان» (٣/ ٢٥٢)، و«أقصى الحافة» و«أدنى الحافة» و«أكثر الحافة» (٢/ ٢٥٣). وجاء لدى بعض اللغويين «حروف اللسان» بمعنى جوانب اللسان أو حافاته، على نحو ما جاء عن الخليل في تذكرة النحاة (ص٣٠)، ولدى سيبويه (٤/ ٤٣٢). وجاء لدى الرازي «العَذَبات» وهي جمع «عذبة» بمعنى طرف الشيء، وهي هنا أطراف اللسان (ص١١٩). وذكر بعض اللغويين «مدارج اللسان» بمعنى قريب من المخارج، كما لدى الخليل (١/٥٧)، والأستراباذي نقلاً عن الخليل (٣/٢٥١). وانفرد ابن دريد بتقسيم اللسان إلى لسانين، فقد ذكر «اللسان الأيمن» (١/ ٤٥).

٦- **الأسنان:** ذكر اللغويون الأسنان وأقسامها، ووقفوا على دورها في عملية التصويت وتحديد المخارج تحديداً دقيقاً. فالخليل ذكر «باطن الثنايا» (١/٥٢)، كما نقلها الأزهري (١/ ٥١)، وزاد على ذلك

«الأضراس» (٥١/١). وجاء في تذكرة النحاة «الأضراس» أيضاً عن الخليل (ص ٢٧، ٣٠)، كما ذكرت «أصول الثنايا» و«أطراف الثنايا العلا» و«الثنايا العلا» و«فويق الثنايا» (ص٢٨، ٣٠) وكل ذلك عن الخليل. وذكرت «الرباعيات» كذلك (ص٣٠). أما سيبويه ففصّل في الأسنان تفصيلاً دقيقاً صار مثلاً للّغويين اللاحقين. فقد ذكر «الأضراس» (٤٣٣/٤) و«الضاحك» و«الناب»، و«الرباعية»، و«الثنية»، و«فويق الثنايا»، و«أصول الثنايا»، و«أطراف الثنايا»، و«أطراف الثنايا العلا» (٤٣٣/٤). أما ابن دريد فاكتفى ببعض ما تقدّم، فأورد «أصول الأضراس»، و«أصول الثنايا العليا»، و«أطراف الثنايا العليا» و«الثنية اليمنى» (١/ ٤٥). وزاد ابن جني على ما تقدم «الأضراس سفلاً وعلواً» (١/ ٨) و«بين الثنايا» (١/ ٤٧)، و«الجانب الأيمن والجانب الأيسر» (١/ ٤٧) قاصداً جانبي الفك والأسنان. أما ماخلا ذلك فقد اعتمد على سيبويه (٤٧/١– ٤٨). كما اعتمد الرازي على ما جاء لدى سيبويه من دون زيادة (ص١١٩). واستعمل ابن الحاجب «طرف الثنايا» بدلاً من «أطراف» (٣/ ٢٥٠). ولم يخرج ابن عصفور على ما استنه سيبويه (٢/ ٦٧٠). وذكر الزمخشري ما جاء لدى سيبويه مع «بين الثنايا» التي رأيناها عند ابن جني (١٠/ ١٢٣).

وثمة إضافة لدى الزجاجي هي «السفلى» في قوله: «فويق الثنايا السفلى» (ص ٤١١). أما ماعدا ذلك فليس لديه زيادة.

لكنّ الأستراباذي خصّص للأسنان حيّزاً مستقلاً بعد أن كانت ترد

ضمن تحديد المخارج أو تعيين الصفات. فقد ذكر أنّ الأسنان اثنتان وثلاثون سناً، ست عشرة في الفكّ الأعلى ومثلها في الفك الأسفل. ثم شرح المقصود بالثنايا وحدّد عددها، وكذلك الشأن مع الرباعيات والأنياب والضواحك والأضراس والنواجذ (٣/ ٢٥٢). وزاد على ما تقدّم «الأضراس العليا» و«فوق الثنية» و«رؤوس الثنايا العليا» (٣/٢٥٣-٢٥٤).

٧- الشفتان: تعدّ الشفتان من أعضاء النطق البارزة، لذلك لم نجد لدى اللغويين تفصيلات تتعلّق بعملهما مادام واضحاً. فقد ذكر الخليل «الشفة» ليشير إلى مبدأ الحروف التي دعاها «شفهية» نسبة إلى الشفة. (١/ ٥٨)، كما ذكر «بين الشفتين» للدلالة على حروف «ف، ب، م» التي لا تعمل الشفتان في شيء من الحروف الصحاح إلا فيها، فهي ذلقية، لأن الذلاقة تكون بطرف أسلة اللسان والشفتين. (١/ ٥١). وجاء ذكر «الشفتين» في التهذيب عن الخليل (١/٥٠- ٥١)، وكذلك في تذكرة النحاة (ص ٢٦)، مع زيادة هي «الشفة السفلى» (ص٢٨) في وصف مخرج الفاء. و«حروف الشفة» (ص٢٨) للدلالة على الحروف الشفهية. وفي روايات أخرى في التذكرة نفسها جاء ذكر «الشفتين» أيضاً، و«باطن الشفة السفلى» (ص٣٠). أما سيبويه فذكر «بين الشفتين»، و«باطن الشفة السفلى» (٤/ ٤٣٣). وجاء لدى ابن دريد: «الشفة» و«من الشفتين»، إضافة إلى ما تقدّم عند سيبويه. ولم يخرج ابن جني على ما جاء لدى سيبويه (٤٨/١)، وكذلك الزمخشري (١٠/ ١٢٣) وكذلك الرازي

(ص١١٩)، وابن الحاجب (٣/ ٢٥٠). أما ابن عصفور فترك صفة «السفلى»، واكتفى بـ «باطن الشفة» (٢/٦٧٠). وجاء في آليات نطق الواو عند سيبويه «تضمّ شفتيك» (٤/ ٤٣٦)، وكذلك لدى ابن عصفور (٢/٦٧٤)، والأستراباذي (٣/ ٢٦١).

٨- الأنف والخيشوم: جاء في تذكرة النحاة عن الخليل ذكر «للخياشيم» في أثناء وصف النون المخفية (ص٣١). وكذلك لدى سيبويه (٤/ ٤٣٤)، وابن دريد (١/٤٥)، وابن جني (١/٤٨)، والرازي (ص١١٩)، وابن عصفور (٢/ ٦٧٠) أما ابن يعيش فذكر الخيشوم والخياشيم (١٠/ ١٢٤، ١٢٦)، على حين أنّ الأستراباذي (٣/ ٢٥٥، ٢٦١) أورد «الخيشوم». وذكر سيبويه «الأنف» (٤/٤٣٤- ٤٣٥) وابن جني (١/ ٤٨) وابن يعيش (١٠/ ١٢٦)، وابن عصفور (٢/ ٦٧٢)، والأستراباذي (٣/ ٢٦١) للدلالة على «الغنة». وزاد ابن يعيش «المنخر» لبيان أنّ الغنّة تخرج من حرف الأنف الذي يحدث إلى داخل الفم لا من المنخر (١٠/ ١٢٦).

أما الزيادات التي جاء بها علماء التجويد فقليلة وغير مؤثّرة في تطوّر الدرس. فقد ذكروا «الرئة» و«القصبة»، وأشاروا إلى أثر «الحنجرة» في التصويت، وفصّلوا في الحديث عن «اللهاة»، ووضحوا المقصود بالخيشوم، وتنبّهوا إلى أثر الخلل الذي قد يصيب الأسنان في سلامة النطق. ويلاحظ أنّ بعض هؤلاء تطلّع إلى الاستعانة بعلم التشريح، وسعى

إلى بيان أعضاء النطق عن طريق الرسم التوضيحي[١]. ولم نقف على أثر محدّد للدرس العلمي الذي جاء به ابن سينا في رسالته «رسالة أسباب حدوث الحروف» في أيّ من الفريقين، فريق اللغويين وفريق علماء التجويد.

ولابدّ من الإشارة إلى أنّ بعض اللغويين تنبّه إلى آلية جهاز النطق فقارنه بما يشبهه، أو فصّل في شرح أوضاعه، أو استعان برسم يوضّح كلامه عن المخارج. فابن جنّي ينقل عن بعضهم تشبيه الحلق والفم بالناي «فإن الصوت يخرج فيه مستطيلاً أملس ساذجاً، كما يجري الصوت في الألف غفلاً بغير صنعة، فإذا وضع الزامر أنامله على خروق الناي المنسوقة، وراوح بين عمله اختلفت الأصوات، وسمع لكلّ خرق منها صوت لا يشبه صاحبه، فكذلك إذا قطع الصوت في الحلق والفم باعتماد على جهات مختلفة كان سبب استماعنا هذه الأصوات المختلفة». ثم يقول: «ونظير ذلك أيضاً وتر العود، فإن الضارب إذا ضربه وهو مرسل سمعت له صوتاً، فإن حصر آخر العود ببعض أصابع يسراه أدّى صوتاً آخر، فإن أدناها قليلاً سمعت غير الاثنين، ثم كذلك كلما أدنى أصبعه من أول الوتر تشكّلت لك أصداء مختلفة، إلا أن الصوت الذي يؤديه الوتر غفلاً غير محصور تجده بالإضافة إلى ما أداه وهو مضغوط محصور أملس مهتزّاً، ويختلف ذلك بقدر قوة الوتر وصلابته، وضعفه ورخاوته. فالوتر في هذا التمثيل كالحلق، والخفقة بالمضراب عليه كأول الصوت من أقصى

(١) انظر: الحمد، غانم قدوري، الدراسات الصوتية، ص ٩٧- ١١٠.





الحلق، وجريان الصوت فيه غفلاً غير محصور كجريان الصوت في الألف الساكنة، وما يعترضه من الضغط والحصر بالأصابع كالذي يعرض للصوت في مخارج الصوت من المقاطع، واختلاف الأصوات هناك كاختلافها هنا»[١]. وإنما نقلنا هذا النصّ على طوله ليظهر للقارئ مدى التوفيق الذي أحرزه ابن جني في فهم آلية جهاز النطق عند الإنسان اعتماداً على الملاحظة والتمثيل.

أما الأستراباذي فقد ذكر «آلة الحروف» قاصداً – كما يقول – مواضع تكونها في اللسان والحلق والنطع والشفة، وهي المسماة بالمخارج[٢]، وفصّل ابن يعيش في شرح الكثير من هيئات النطق، وصفاته ممّا يحتاج إلى درسٍ مفصّل. ويكفي أن نذكر هنا التفاته إلى «صوت الصّدر»، وتفريقه بين الأصوات المجهورة والشديدة تفريقاً فاق ما جاء به سيبويه، وكذلك الشأن في حديثه عن التي بين الرخوة والشديدة، أي المتوسطة، وأشياء أخر تطلب في مواضعها[٣]. وانفرد السكاكي بإثبات رسم توضيحي لمخارج الحروف من جهاز النطق. وإذا ثبت أنّ الرسم من إبداعه عدّ الأول في هذا المجال. (انظر صورة الرسم في ملحق البحث).

وتشير هذه الأمثلة القليلة إلى أنّ الدرس الصوتي تطوّر بعد سيبويه تطوّراً ملحوظاً، مع بقاء الأسس التي أرساها سيبويه وأستاذه الخليل من

---

(١) ابن جني، سرّ الصناعة، ١/٨-٩.

(٢) انظر: الأستراباذي، شرح الشافية، ٣/٢٥١.

(٣) انظر: ابن يعيش، شرح المفصّل، ١٠/١٢٩.

قبل. وينقض هذا مادرج عليه بعض الدارسين المحدثين الذين زعموا أنّ الدرس الصوتي اكتمل لدى سيبويه، وأن اللغويين اللاحقين احتذوا حذوه، ولم يخرجوا على شيء جاء به، إذ اكتفوا بترديد عباراته كما هي[١]. ويرى القارئ فيما تقدّم من وصف جهاز النطق ما ينقض هذا الزعم أيضاً، إذ فصّل اللغويون اللاحقون الكثير من المسائل تفصيلاً واسعاً.

4- خاتمة في التقويم والنقد:

رأينا في معرفة اللغويين - وهم الرواد في هذا المجال - لجهاز النطق تفصيلات كثيرة تربو على ما يستعمله المحدثون في مواضع كثيرة كاللسان والأسنان. أمّا النقص الملحوظ في هذه المعرفة فيكاد ينحصر في عدم التوصّل إلى الوترين الصوتيين، وعدم اعتبار الحنجرة جزءاً مستقلاً من أجزاء النطق. وقد أدى هذا كما أشرنا في موضع متقدّم إلى غموض في تعريف الجهر والهمس، وشيء من الخلط بين الجهر والشدّة ولا سيما لدى سيبويه. لكن الأمر سرعان ما توضح إلى حدّ بعيد لدى اللغويين اللاحقين اعتماداً على الملاحظة والدّربة.

وإذا نظرنا إلى هذه المعرفة من الجهة العلمية وجدنا أنها تمتاز بأنها وليدة الملاحظة، وهذا ما رأيناه عند الخليل بحسب رواية الليث الذي ذكر استقصاء النظر والتدبّر لدى الخليل. وليس هناك ما يمنع من افتراض

(١) انظر: أنيس، إبراهيم، الأصوات اللغوية، ص ١٠٦ - ١٠٧.

وجود الملاحظة لدى اللغويين التالين مع اعتمادهم على النقل والخبرة المتقدمة. وتمتاز هذه المعرفة أيضاً بأنها أثر من آثار التجربة والاختبار، وهذا ما توضّح لدى الخليل الذي وصفه الليث بأنه كان «يذوق» الحروف. وكذا الشأن لدى ابن جني الذي ذكر ذوق الحروف للتوصّل إلى المخارج الدقيقة. وممّا تمتاز به هذه المعرفة كذلك استنادها إلى الآليات الحركية التي تفوق ذوق الحروف من جهات عدة يحتاج رصدها إلى بحث مستقل. غير أننا نشير إلى أن اعتماد سيبويه على وصف الآليات لبيان بعض المخارج والصفات صار سنة متّبعة. ويطول بنا الحديث لو رحنا نتتبع أمثلة من ذلك كوصف حركات اللسان والحنك في الإطباق، أو حركات اللسان والشفتين في وصف الصوائت، أو حركات النطق في وصف مخرج الضاد وتكلّفها من الشدق الأيمن أو الأيسر، ونحو ذلك. لكنّ الذي يهمّنا في هذا الصدد هو أن اعتماد اللغويين على المعارف اللغوية في خلق الإنسان كان منطلقاً فقط نحو معرفة علمية متخصّصة رفدتها، بل بعثتها، أسس علمية لا مراء فيها كالملاحظة والتجريب والوصف والتمثيل. ويهمّنا أيضاً أن نصل إلى أنّ هذه المعرفة لم تكن مفردات مبعثرة أو ملحوظات جزئية، إنما كانت ضمن إطار من التصوّر لآلة حركية أو جهاز له صفة النظام الذي يعتمد على دور الأجزاء مجتمعة متآلفة تربطها علاقات، وتجري خلالها موادّ لا غنى عنها كالهواء والنفس والصّدى والرطوبة ونحو ذلك. وربما كان أوضح مثال على تصوّر أعضاء النطق وهي تؤلف جهازاً ما سبق ذكره لدى ابن جني من موازنة الحلق والفم – وهما جزءان جامعان – بالناي وصنعته وهيئاته وأصواته، والعود

ووتره ومضرابه. وما أشار إليه الأستراباذي من آلة النطق التي تتكون في الحلق واللسان والنطع والشفة.

أما إذا نظرنا إلى هذه المعرفة من الجهة اللغوية فإننا نرى أنّ المفردات التي كانت تتبع رصيد اللغة المعجمي - الدلالي ومخزون الثقافة المعرفي صارت مصطلحات تتبع علماً أو معرفة منظمة. ولم يكن هذا الانتقال صعباً، بل لم يكن ملحوظاً غالباً لقرب علوم اللغة من اللغة نفسها. ولذلك لم نلحظ غرابة أو عجمة في المصطلحات الصوتية التي مررنا بالكثير منها، ممّا له تعلّق بجهاز النطق خاصة أو تعلّق بغيره من مجالات الدرس الصوتي عامة. أما طرق توليد المصطلحات فهي النقل الدلالي وهو أكثر الطرق وأيسرها، إذ يجري في العلم مجرى الدم في العروق. ولولا نظرة الباحث اللغوي المختصّ لما انكشف فرق من الفروق بين المصطلحات المولدة والمفردات اللغوية. وهناك من هذه الطرق التي تولّد المصطلحات التركيب الإضافي والتركيب الوصفي، وهما من التراكيب الشائعة، نحو «أقصى الفم» و«شجر الفم» و«أقصى الحلق» و«باطن الثنايا». ونحو «الغار الأعلى» و«اللسان الأيمن» و«الشبك المثنّى» و«الثنية اليمنى» و«الثنايا العليا»، وغير ذلك. وهناك أيضاً الاشتقاق الذي رأينا على صعيد الأسماء ندرته ما خلا مصطلحات صوتية عامة ذكرها الخليل، نحو «الجوفية» و«الشجرية» و«الذلقية» ونحوها، وهي من اشتقاق النسبة. أما اشتقاق الأفعال من المصادر، ممّا تداوله علماء هذا الدرس، نحو: «يفتح فاه»، و«مذل بهن اللسان» و«تطبق الفم» و«لانت

عن صلابة الطاء» وغيرها كثير، فليس ثمّ دليل على أن هؤلاء العلماء هم الذين اشتقوا هذه الأفعال ابتداء، لأنها من رصيد اللغة، والجديد فيها هو نقلها من اللغة إلى العلم فقط. ويقودنا هذا إلى استكمال الحديث عن الجهة اللغوية عامة، إذ ظهر نحو من اللغة الكتابية الموطأة الأكناف، بينها وبين اللغة الشفهية بون واسع. ويشير هذا إلى قابلية فذّة في العربية الفصحى التي ما اعتادت الدخول في مدائن العلم، وهي التي عاشت في بوادي الشعر. لكنها امتازت هنا بالتقسيم وطول الجمل والبعد عن المبالغة والخيال والميل إلى الواقعية القائمة على الوصف، وغلبة طرق الإيضاح والتفسير وصولاً إلى الدلالة العلمية الدقيقة.

وهكذا يتبيّن، ونحن نردّ أواخر هذا البحث على أوائله، أنّ معرفة اللغويين لجهاز النطق استمدت عناصرها من اللغة ورصيدها المعرفي ووجهها الشفهي مع ما كان يشيع في الناس من طرق التلاوة وتجويد القراءة. وأنّ هذه المعرفة سرعان ما انتقلت من حدودها الأولى التي تنتمي إلى المعارف العامة، إلى دوحة العلوم العربية والإسلامية ضمن الجوّ العلمي الناهض في القرن الثاني للهجرة. وأنّ عناصر الاستمرار والإضافة والتوظيف المتعدّد الوجوه حفظت للأجيال التالية ضرباً من ضروب العلوم التي كانت عربية اليد والوجه واللسان.

فهرس المصادر والمراجع

ابن البنّاء، «كتاب العيوب التي يجب أن يجتنبها القرّاء، وإيضاح الأدوات التي بني عليها الإقراء»، تحقيق غانم قدوري حمد، مجلة معهد

المخطوطات العربية، الكويت، المجلد (٢١)، الجزء الأول لعام ١٩٨٧م.

ابن جنّي، سرّ صناعة الإعراب، تحقيق حسن هنداوي، دار القلم، دمشق ١٩٨٥م.

ابن دريد، كتاب جمهرة اللغة، تحقيق رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط. أولى ١٩٨٧م.

ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر، وآدابه ونقده، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية الكبرى بمصر، ط. ثانية ١٩٥٥م.

ابن سينا، رسالة أسباب حدوث الحروف، تحقيق محمد حسان الطيّان ويحيى ميرعلم، مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٨٣م.

ابن عصفور، الممتع في التصريف، تحقيق فخر الدين قباوة، المكتبة العربية، حلب ١٩٧٠م.

ابن قيّم الجوزية، الطبّ النبوي، طبع بإشراف عبد الغني عبد الخالق وعادل الأزهري ومحمود فرج العقدة، مكتبة النهضة الحديثة، مكة المكرمة (د.ت).

ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت (د.ت).

ابن يعيش، شرح المفصّل، إدارة الطباعة المنيرية، مصر (د.ت).

أبو حيان الأندلسي، تذكرة النحاة، تحقيق عفيف عبد الرحمن،

مؤسسة الرسالة، بيروت، ط. أولى ١٩٨٦م.

الأزهري، تهذيب اللغة، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مراجعة محمد علي النجار، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر ١٩٦٤م.

الأستراباذي، شرح شافية ابن الحاجب مع شرح شواهده لعبد القادر البغدادي، تحقيق محمد نور الحسن ومحمد الزفزاف ومحمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة حجازي بالقاهرة ١٣٥٦هـ.

أنيس، إبراهيم، الأصوات اللغوية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط. رابعة ١٩٧١م.

ثابت بن أبي ثابت، كتاب خلق الإنسان، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، وزارة الإعلام، الكويت، ط. ثانية ١٩٨٥م.

الجوهري، الصحاح في اللغة والعلوم، تجديد نديم مرعشلي وأسامة مرعشلي، دار الحضارة العربية، ط. أولى ١٩٧٤م.

الحمد، غانم قدوري، الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، بغداد ١٩٨٦م.

الخوارزمي، مفاتيح العلوم، إدارة الطباعة المنيرية بمصر ١٣٤٢هـ.

الرازي، فخر الدين، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، تحقيق بكري شيخ أمين، دار العلم للملايين، بيروت، ط. أولى ١٩٨٥م.

الرفاعي، أنور وزملاؤه، تاريخ الحضارة العربية، الحياة الفكرية، وزارة المعارف، دمشق (د.ت).

الزَّبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، الجزء الثاني والعشرون، تحقيق مصطفى حجازي، وزارة الإعلام، الكويت ١٩٨٥م.

الزجاجي، كتاب الجمل في النحو، تحقيق علي توفيق الحمد، مؤسسة الرسالة ببيروت، ودار الأمل بإربد، ط. رابعة ١٩٨٨م.

سزكين، فؤاد، تاريخ التراث العربي، المجلد الثامن، الجزء الأول «علم اللغة»، ترجمة عرفة مصطفى، مراجعة مازن عماوي، جامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض ١٩٨٨م.

السطل، د. وجيهة، التأليف في خلق الإنسان من خلال معاجم المعاني، دار الحكمة، دمشق (د.ت).

السكاكي، كتاب مفتاح العلوم، المطبعة الأدبية بمصر ١٣١٧هـ.

سيبويه، الكتاب، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، عالم الكتب، بيروت (د.ت).

الفراهيدي، الخليل بن أحمد، كتاب العين، تحقيق مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار الهجرة، إيران، قم، ط. أولى ١٤٠٥هـ.

الفيروز آبادي، القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، ط. أولى ١٩٨٦م.

قدّور، أحمد محمد، أصالة علم الأصوات عند الخليل من خلال مقدمة كتاب العين، دار الفكر، دمشق ١٩٩٨م.

مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، د. ثانية (د.ت).

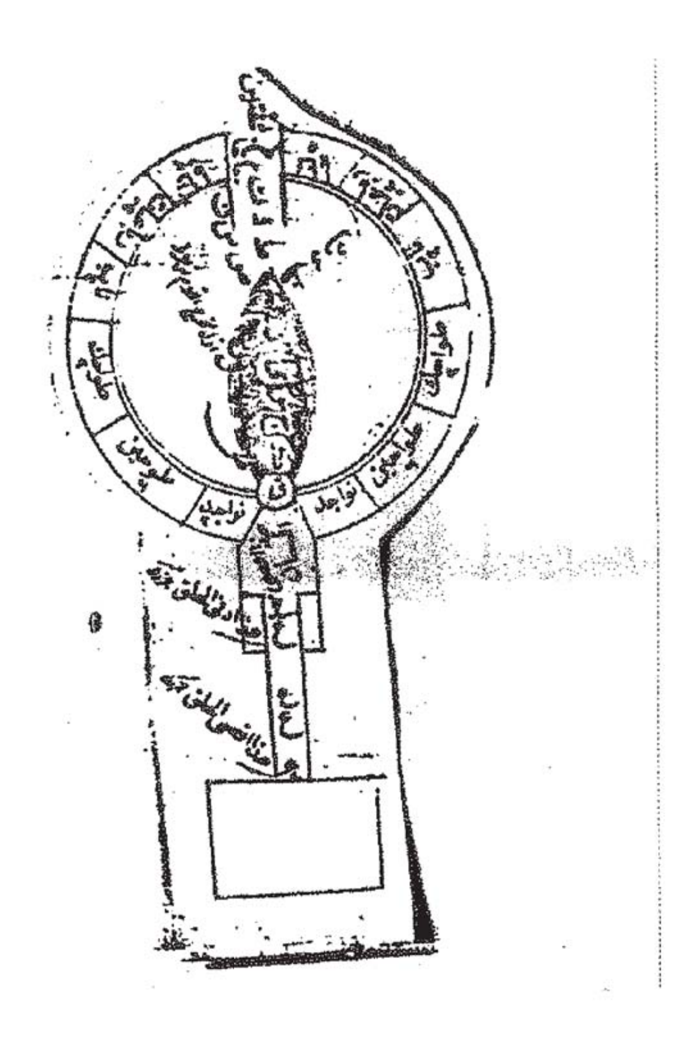
مرعشلي، نديم، ويوسف خياط، المصطلحات العلمية والفنية، مجلد ملحق بطبعة لسان العرب المحيط، دار لسان العرب، بيروت ١٩٧٠م.

مكي بن أبي طالب القيسي، كتاب الإبانة عن معاني القراءات، تحقيق محيي الدين رمضان، دار المأمون للتراث، دمشق، ط. أولى ١٩٧٩.

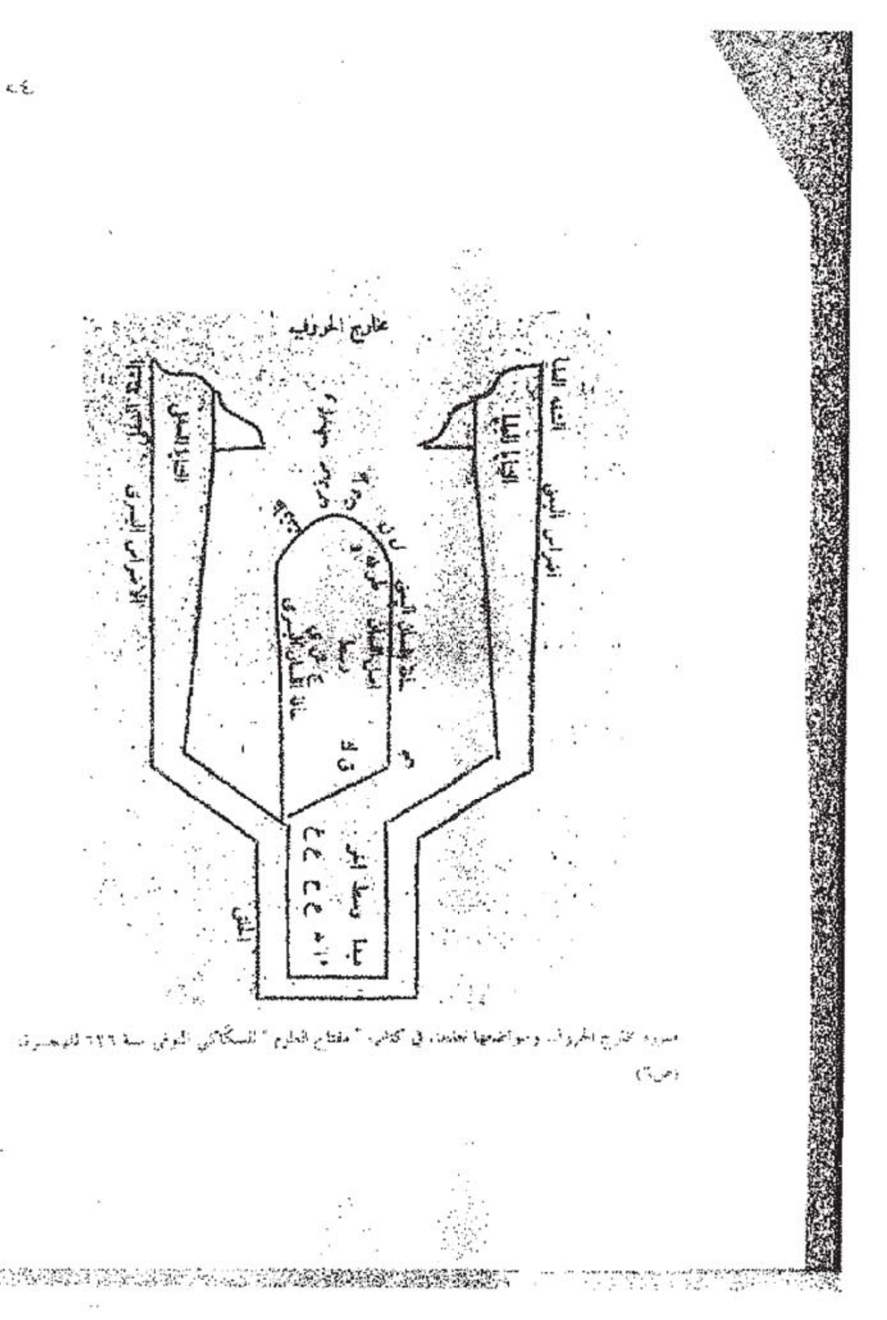
النصّ، إحسان، «مصنفات اللغويين العرب في خلق الإنسان»، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد الثالث والسبعون، الجزء الثاني ١٩٩٨م.

نصّار، حسين، المعجم العربي، نشأته وتطوّره، مكتبة مصر، القاهرة، ط. ثانية ١٩٦٨م.

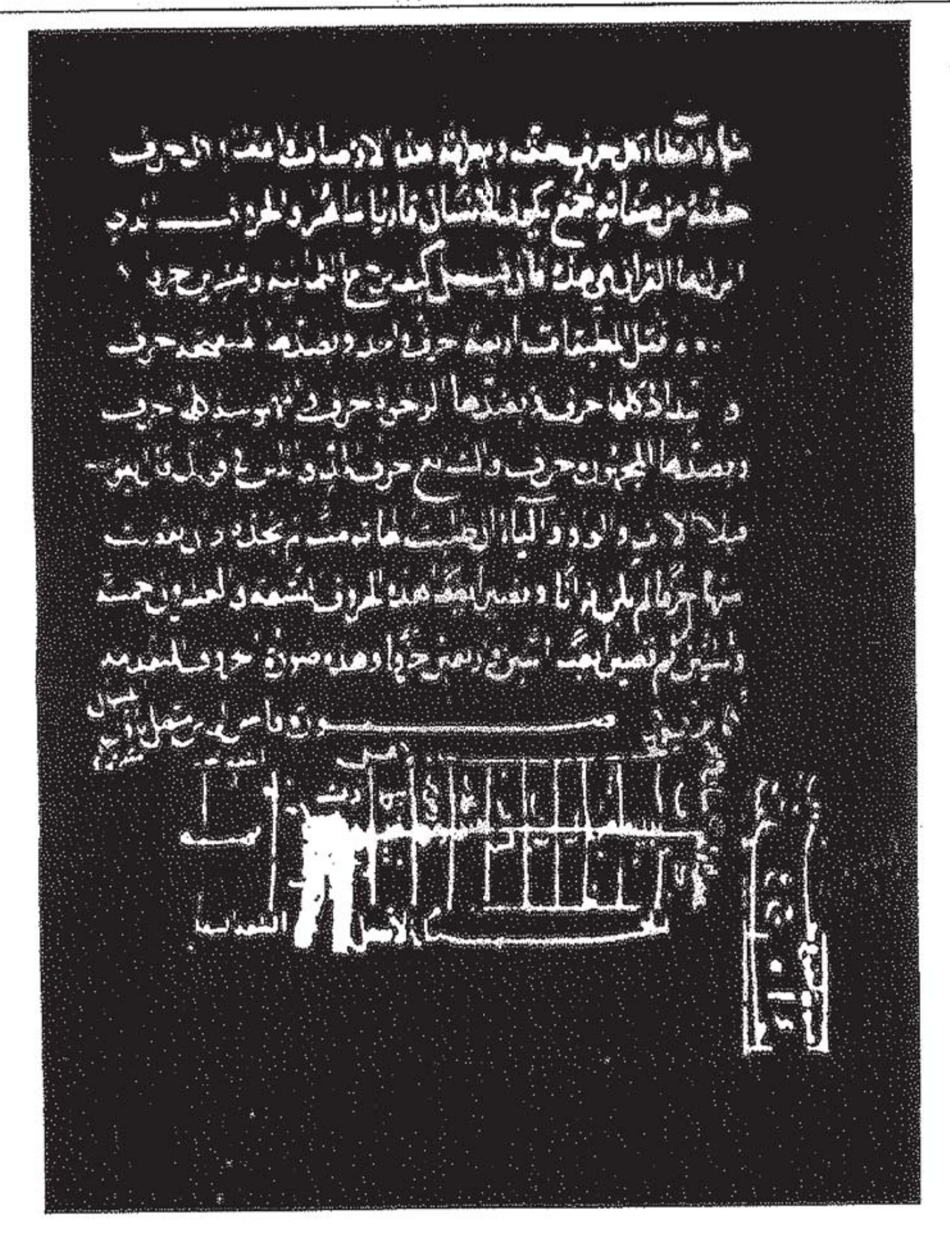
ملـــحق



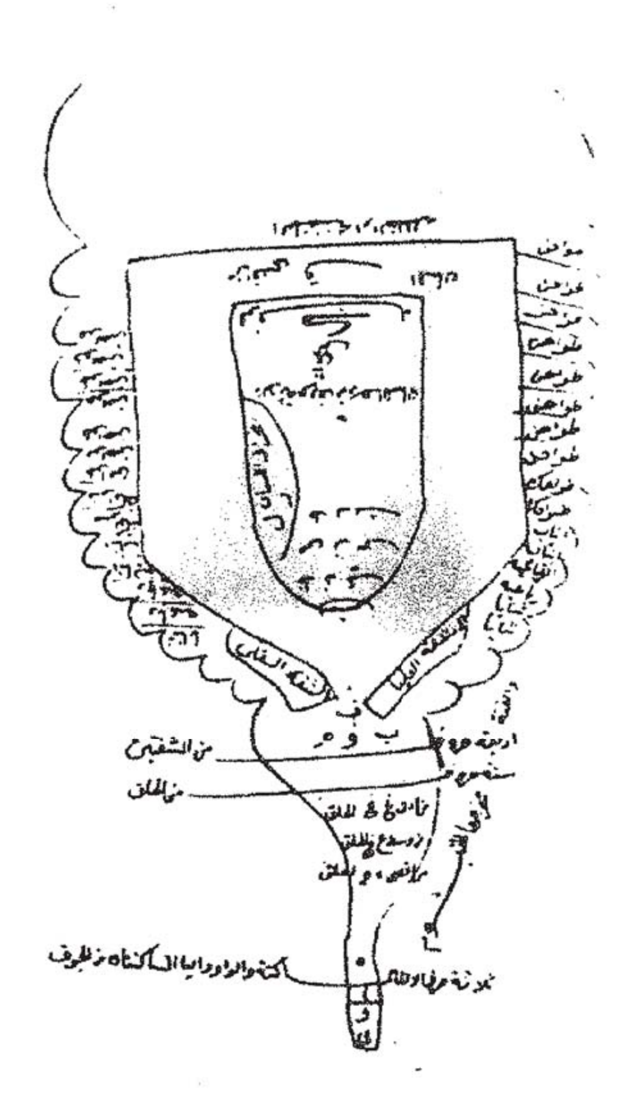
صورة آلة النطق عليها مخارج الحروف. جاءت في ورقة مفردة في آخر كتاب الطرازات المعلمة في شرح المقدمة لعبد الدائم بن علي الأزهري المتوفى سنة ٨٧٠هـ. وهو مخطوط بمكتبة المتحف ببغداد رقم ٢٠١٦٥. (من كتاب الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، ص ١١٢).



صورة مخارج الحروف ومواضعها جاءت في كتاب «مفتاح العلوم» للسكّاكي المتوفى سنة ٦٢٦ للهجرة، (ص ٦).



صورة آلة النطق عليها مخارج الحروف من كتاب في تجويد القراءة ومخارج الحروف لابن وثيق الأندلسي المتوفى سنة ٦٥٤هـ. وقد كتبت مخطوطة الكتاب سنة ٦٩٤هـ. وهي محفوظة بمكتبة أيا صوفيا بتركيا رقم (٣٩/ ٧). (من كتاب الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، ص ١١١).



صورة آلة النطق عليها مخارج الحروف وردت في كتاب أرجوزة البيان في حكم تجويد القرآن لمحمد حسين الأصفهاني، الذي تحتفظ بمخطوطته مكتبة المتحف ببغداد رقم ١٠١٩. (من كتاب الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، ص ١١٣).